في صحبة "الطيبين"

أذهب له بغير اتصال كعادتي معه، يفتح الباب فينشرح صدري لرؤيته، وجه "مثالي" بشعره الأبيض وملامحه الهادئة وابتسامته الطبيعية المشرقة، بيته هادئ يمتلئ بالسكينة وبمجرد دخولك تشعر بالراحة النفسية!

احتضنني كعادته ومسح على رأسي "المتعب" بيده الحنون، ذهبت معه للمطبخ لنعد الشاي معًا، يسكن بمفرده منذ عرفته قبل 15 سنة، تزوج لمدة خمس سنوات فقط ورحلت زوجته التي كان يحبها بشدة، لم يرزقهما الله بأطفال، حاول أن يتزوج ولكنه في النهاية قرر ألا يفعل لأنه - كما قال - يبحث عن زوجته في كل من يقابلهم ويخشى أن يظلمهم! تعرفت عليه في إحدى الجمعيات الخيرية، ينتهي من وظيفته العادية ثم يعود للبيت ليغير ملابسه و"يتحول" لشخص آخر، بطل "أسطوري" آخر من أصدقائي الكبار غريبي الأطوار!

كل ما تبقى من يومه يقضيه في العمل مع الأيتام! يذاكر معهم دروسهم ويطعمهم بيده ويستمع لمشاكلهم الصغيرة، وعندما يكبرون فهو "أبوهم" الذي لم يعرفوا غيره، يحل مشاكلهم ويتوسط لهم للحصول على عمل ويستقبلهم في بيته

ويذهب معهم ليخطب لهم، يحضر أفراحهم ويبكي عند زفافهم، يستقبل "أحفاده" منهم ويكمل مسيرته معهم! يحبونه بشدة ويفتخرون بأنه هو من رباهم فأحسن تربيتهم!

هذا وقد اتسع قلبه الكبير لكل من حوله، فاعتاد أن يفتح بيته للجميع، أزوره من حين لآخر فيستمع لي بحب، ثم يحدثني عن أسرته الكبيرة، تنهمر دموعه القريبة عندما يتحدث عن زوجته وكيف أنه اشتاق لها فعلًا وأنه يرجو الله أن يجمعهما معًا في مستقر رحمته، تنتهي الزيارة فيودعني عند الباب بصوته الحنون وهو يضع يده على صدري طالبًا مني أن "آخد بالي من نفسي"، فأشعر أنه قد "لمس" قلبي المنهك بيده الحانية!

ابتسم وأغادر وأنا أشعر أنني قد اقتربت أكثر من "إنسانيتي" وأنني قد صرت أكثر قدرة على العطاء وأن "الكون" رغم كل الألم والحزن قد صار أكثر جمالًا وهدوءً وإنسانية، فقد كنت في صحبة "الطيبين"، ويا لها من صحبة.... يا لها من صحبة!

***